

تحية إلى بيروت

أمين صالح*

بيروت

I

حمامة بيضاء ترتقي على عجل أدراج السماء تليها أخرى، بيضاء أيضاً، ترسم شكلاً غامضاً، ثم أخرى، بيضاء، تنقر أطراف الريح لتعبر. حمامات بيض تشق فضاء الغيب بأجنحة لا ترفرف.

لا، ليست حمام تلك التي تتقاذفها ظهيرة أيقظها الدوي فتلفتت زاهلة، بل أطفال رُضع محشورون داخل القُمت البيضاء، لفظتهم مهودهم خشية اللهب الوحشي فنزحوا بعيداً عن الحضن والثدي والحليب لتتلقّفهم أياد سماوية، أيادٍ رحيمة، الواحد بعد الآخر.

II

لم تسعفها الحنجرة كي تطلق الصرخة الأخيرة. المرأة الواقفة لصق النافذة تصقل زجاجها، وتغسل غبار يوم شاقّ تلكاً في زواياها، وتمسح أثر حلم عجول مرّ البارحة ولم يدخل نومها إذ باغتها انفجار غاضب هزّ البيت وهشم الزجاج الصقيل فتناثرت شظاياها في الأرجاء:

شظية شملت بحنانها وجه امرأة ضرّجه الرعب وأخفى ملامحه؛

شظية لملت بقايا بيت حزين ما عادت أحجاره تسرد القصص؛

شظية شمّوا أنفاس غرقى كانوا للتوّ يحملون المرفأ بسواعدهم الغضة؛

شظية رأوا فيها الموت يرنو دماغ العينين صوب مدينة تنهش الحرائق أطرافها

شارعاً شارعاً.

* روائي بحريني.

III

حطام سفينة
حطام بيت
حطام مستشفى
حطام فندق
حطام سيارة
حطام شجرة
حطام إنسان.

ينظر إلينا دامي الوجه، مغبرّ الشعر، بقميص ممزق ومتسخ. لا تشفّ ملامحه عن غضب أو خوف.. تشفّ نظراته عن ذهول وحيرة.

لا يريد يداً تغسل دمه، ولا يداً تنفض الغبار عن شعره وثيابه، ولا صوتاً يحنو ويكثرث. يريد أن يعرف فحسب: ما الذي حدث بالضبط؟ مَنْ فجّر المرفأ؟
أمام تحديقته الثاقبة المخترقة جلودنا، كرمح ينوي ابتكار جرح لا يندمل؛ أمام صمته المديد الأشبه بصمت الخليقة إزاء غيب يجترح الخارق والمعجز من دون أن يردّ على الأسئلة، لا نملك غير أن نشيح وجوهنا، ونطرق إطراقة العاجز الخجول، لعله يرأف بنا، بضعفنا، بوجعنا، بيأسنا، غير أنه يسرف في الفتك بنا، وليس بيننا غير فراغ وعتمة وتيه.. وأنقاض مدينة.

IV

الطفلة التي كانت تدرج أعوامها الثلاثة في طرقات الضاحية، وتورّج ضاحكة براعم الصباح وهي تنزّه أحلامها الشفيفة وتنثر دعاياتها بين رصيف ورصيف، وترشّ المارة المرحين، العابرين تحت قوس المطر، بأنداء العذوبة، ثم وحيدة تعود إلى حضن أمها ومعها ريش وأصداف وأوراق شجر. تلك الصغيرة، صديقة النهار وأنيسة المساء، لم تعد تدرج أعوامها، والأرصفة لم تعد تصيخ لوقع أقدامها، والأشجار لم تعد تنحني كلما مدّت أناملها، والأحلام الشفيفة ما عادت تشفّ عن لعب وضحك، منذ أن مسّ اللهب ذيل ثوبها.

V

الذين دخلوا المرفأ ما خرجوا
والذين ذهبوا مع الدويّ ما عادوا
عاد الدويّ وحده يجرجر أسمال المدينة.

كل مساء
 ينسلّ من أطراف المرفأ
 أشباح لا ظلال لهم، لا اسم ولا هوية،
 من قمصانهم تفوح رائحة الورد.
 يتناثرون في الطرقات والأزقة
 يطرقون الأبواب ويطلّون عبر النوافذ
 وفي سلال من قش يلتقطون الأحلام الطافية.
 لا حدّ لجذلمهم! لا وصف لبراءتهم!
 بعد أن أمست الساحات ينابيع
 والميادين ملاعب.
 وفي آخر الليل ينسحبون صوب المرفأ
 مثقلين بالحزن لأن أحداً لم يتعرّف عليهم. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(سلسلة قضايا استراتيجية - وجهة نظر إسرائيلية - ٧)
 الوضع الاستراتيجي الراهن في سورية وانعكاساته على
 أمن إسرائيل ومصالحها

دراسات لباحثين إسرائيليين كبار

إشراف وتحرير: أحمد خليفة

إعداد: رندة حيدر

١٦٢ صفحة ٨ دولارات